الخلق فى الفن

ليس الخلق أن تخرج من العدم وجوداً . إنما الخلق فى الفن — وربما فى غيره أيضاً — أن تنفخ روحاً فى مادة موجودة . كذلك صنع أعظم الخالقين يوم أوجد آدم . لم يمد يده العلوية إلى الفضاء قائلاً : « كن ! » فكان . ولكنه مد يده إلى الطين — مادة وجدت قبل آدم — فسوى منه ذلك المخلوق الحى . لا شىء يخرج من لا شىء . كل شىء يخرج من كل شىء . ذلك هو الدرس الأول فى الخلق ، وقد تلقيناه عن الخالق الأكبر .

وليس الابتكار فى الفن كذلك أن تطرق موضوعاً لم يسبقك إليه سابق ، بل الابتكار هو أن تتناول الموضوع الذى كاد يبلى فى أصابع السابقين ، فاذا هو يضىء فى يديك بروح من عندك . الكثير من موضوعات « شكسبير » نقل عن « بوكاشيو » . وبعض « موليير » عن « سكارون » . و « جوته » فى فاوست عن « مارلو » . وماسى « راسين » عن ماسى « ايروبيد » . وايروبيد وسوفوكل وأشيل عن « هوميروس » ، وشعراء الشعب المجهولين المتنقلين بالأساطير . . .

ليس الموضوع فى الفن بذى خطر . وليست الحوادث والوقائع فى القصص والشعر والتمثيل بذات قيمة . ولكن القيمة والخطر فى تلك الأشعة الجديدة التى يستطيع الفنان أن يستخرجها من هيكل تلك الموضوعات والحوادث والوقائع .

إن الفن ليس فى الهيكل . إنه فى الثوب . الفن هو الثوب الجديد الذى يلبسه الفنان للهيكل القديم . إنه الكسوة المتجددة لكعبة لا تتغير .

وليس هذا بالمطلب اليسير . فما أشق الاتيان بجديد فى موضوع غير جديد ! وما أعسر الكشف عما لم يكشف فى بناء تقتحمه العيون ، وتنقب فيه العقول ، فى كل الشعوب وكل الأزمان . من أجل هذا كان عمل « راسين » فى « أندروماك » تلك الشخصية التى تناولتها من قبله المواهب والأذهان ، أعظم فى تاريخ الأدب من عمل « بونسون دى تيراى » فى « روكامبول » ، تلك الشخصية التى اخترعها من رأسه اختراعاً ، ونسج حوادثها العجيبة من مخيلته نسجاً .

قال « شسترتون » فيما أذكر ، مقدماً لكتاب من كتب « ديكنز » : إن الشاعر خصب القريحة ليس ذلك الذى يسلك طريق الإغراب ؛ فان أرفع مراتب الابتكار قد يتسنمها شاعر يتغنى فى « الربيع » .

وقد تسألنى : ما هو الابتكار ؟ فأقول لك بسرعة وبساطة : هو أن تكون أنت ، هو أن تحقق نفسك .

إن أعظم معجزة فى الكون للخالق الأعظم هى « شخصية الانسان » . ملايين الملايين من البشر تتعاقب ، فلا تطابق شخصية أخرى تمام الانطباق ، فى الأجسام والمشاعر والعقلية والروح والذوق والطبع . كل شخص يظهر فى الأرض جديد ، جدة تنبثق معه وتختفى معه إلى أبد الآبدين . أى معين من الخلق الإلهى لا ينضب ! وهذه الجدة فى المشاعر والعقل والروح لو لازمتنا طويلاً لرأينا بها العجب . ولكن ناموس القوى والضعيف يفعل فعله ، وجاذبية الأجسام الكبرى للصغرى تسرى على الآدميين أيضاً . فما نكاد نولد حتى يتلقفنا الكبار من حولنا ، فلا نبصر الأشياء إلا بأعينهم ، ولا نسميها إلا بما وضعوا لها من أسماء وصفات وسمات . لقد كتب علينا هذا المصير : أن نفقد جدتنا ونحن فى المهد ، وأن نلف فى أردية القدم منذ الطفولة ، وأن يفقأ آباؤنا عيوننا الجديدة باللمسة الأولى ، وأن يصمّوا آذاننا بالصيحة الأولى . ومن فرّ منا ببعض البصر وواجه الدنيا بعينيه هو فانبهر ، فهو ذلك الذى نطلق عليه فيما بعد اسم « الشاعر المبتكر » . على أن الخطر رابض أيضاً فى محيط الفن . فهنالك الشخصية القوية كالنواة فى الذرة ، شدت اليها الشخصيات الصغرى ، فأعمت أبصارها ، فلا نرى إلا ما ترى الكبرى ولا تقول إلا ما تقول . فاذا سئلت عن « الربيع » قالت ، لا ما تحس هى وترى ، بل ما سمعت ورأت من خلال أسطر نفس كبيرة مشرقة فى عصرها أو فى عصور الغابرين . إلى أن تتحطم الذرة ، وينفرط عقد النواة ، ويتحرر من تتكشف له نفسه ، فيقول قولاً ندرك من ساعتنا أنه له . فالصوت صوته ، والنبرة نبرته ، والفرحة فرحته ، والدمعة دمعته . فنصيح معجبين : هذا قول مبتكر . وهو ما زاد فى حقيقة الأمر على أن حقق نفسه .

لكن . . ما أصعب تحطيم الذرة فى الفن أيضاً ! وأى دوىّ وانفجار أيضاً لهذا الحدث فى تاريخ الآداب والفنون ! إن بروز الشخصية مفروزة جلية هى

معجزة الفنان . كم من الجهد بذل « بيتهوفن » لينطلق من نواة « موزارت » ! إن آثار هذا الجهد لم تزل باقية فى سانفونيته الأولى . وما أروع كفاح « جوته » فى شبابه مع أقرانه الشعراء فى سبيل التحرر من تأثير « فولتير » والخروج عن نطاق جاذبيته . إنها لمضنية مؤلمة تلك الجهود التى تبذلها النجوم لتضىء فى حضرة الشمس . وإنها لتعيش فى انتظار الساعة التى تصبح فيها شموساً بدورها تجرى من حولها النجوم .

على أن شخصية الفنان لا تتكون إلا من كتلة أعمال . ان العمود الفقرى للشخصية الفنية هو سلسلة آثار ، يستطيع الباحث أن يتتبع فى حلقاتها صفاته وعيوبه ولوازمه وعاداته ، ومزاجه واتجاهاته . لهذا كان على النقد الفنى أن يفرق دائماً بين فنان فى أعماله الأولى يتلمس خطاه نحو شخصيته ، وفنان عُرف له طريق واتجاه . فقضية النقد للأول تتلخص فى : « كيف صنع هذا ؟ » . وقضية النقد للثانى هى : « لماذا صنع هذا ؟ » . الأول لم نعرف له شخصية بعد ، فعلينا أن نعينه على معرفة طريقه إليها ، فنناقشه : كيف أتيح ذلك الاثر ؟ ما موجباته ؟ وما أدواته ؟ وأى خطى يتأثر ؟ وفى أى طريق يسير ؟

أما الثانى وقد عرفنا شخصيته ووجهته ، فواجبنا أن نسأل : « لماذا أخرج للناس هذا الأثر الأخير » ليحقق به أى جانب من جوانب شخصيته التى نعرف عنها الكثير ؟ لماذا صنع هذا ؟ أترى الغرض منه تأكيد فكرة من أفكاره ؟ أو الرجوع عن بعض هذه الأفكار ؟ أو الخضوع لاحساس بعينه يلاحقه فى كل أثر من آثاره ؟ .

النقد للأول موجّه ، والثانى مفسر . ينبغى للنقد الفنى أن يوجه الأول إلى شخصيته التى لم تظهر ، وأن يفسر للثانى شخصيته التى ظهرت .

بهذا يؤدى النقد واجبه فى مجال الخلق الفنى .

وانه لمجال مفعم بالعجائب . وقد يدرك المتأمل له أنه تابع لنظام الذرات والكواكب . فأسلوب الخالق الأعظم واحد ! فى صغائر المخلوقات وفى أكابرها وفى طاقتها المادية وفى نشاطها المعنوى .

ان الفنان يظل يبحث عن ذاته وشخصيته ، إلى أن يجدها فيصبح سجينها . إنه يظل يدور حول « نواة » طالباً الانفصال عنها والاستقلال بذاته . فاذا انفصل واستقل دار حول ذاته .

كل فنان ذو طابع هو حبيس طابعه . انقطع شهوراً لدراسة فنان بارز الشخصية . هب نفسك لشيطان أعماله كلها مجتمعة ، فلن يمضى بك الوقت حتى تكون قد عرفته وأحببته وسئمته وألفته فى كل إشاراته ولفتاته وارتفاعه وانحطاطه وقدرته وعجزه . إن تأمل آثار الفنان كاملة تكشف لك عن شخصيته الكاملة ، فتعرف أسلوبه فى التفكير والتعبير ، وطريقته فى تناول الأشياء . ولكنك وقد أحطت به ونفذت إلى لبه لا بد صائح يوماً بلهجة المحبة والألفة : « دائماً هذه الطريقة ! دائماً هذا الأسلوب ! لو يخرج عنها قليلا . ! ! » كيف يخرج عنها ؟ إنها ذاته . تلك مأساة الطابع والشخصية . ما دام له طابع فلن يخلع عنه أبداً . . ولا بالموت .

كل خالق ذو أسلوب سجين أسلوبه . . . حتى الخالق الأعظم .

توفيق الحكيم